نهضة العراق الأدبية
في القرن التاسع عشر
للأستاذ ابراهيم الوائلي

شهد العراق في القرن التاسع عشر نهضة أدبية كبرى كان لها الصدى المدوي في وادي الرافدين ، وكان لها الأثر الفعال في انبعاث الشعر المعاصر في العراق . وهذا القرن — بما فيه تبلبل سياسي والتواء في الحكم ، وبما فيه من ظلم واستبداد — كان نشيطا في حركته العلمية والأدبية . وكان أكثر نشاطاً في الناحية الشعرية . ففي بغداد والحلة والنجف والموصل كانت الحركة العلمية في نهاية المركة مع الأحداث والخطوب التي كانت تحارب العقول والأذهان والحريات ؛ لأن الأولى كانت تستمد قوتها من تأريخ حافل بالأمجاد والروائع ؛ ولأن الثانية كانت تطل من دنيا الجهل والجمود تحارب هذه الأمجاد بقوة وعنف . وانتصرت الحركة العلمية في العراق بفضل أبنائه الساهرين على تأريخهم وأمجادهم ، فقد كانت في القرن التاسع عشر — ولا تزال — بيوت أثيرة المكانة منيعة الجانب تجمع بين النفوذ السياسي والديني ، وكان فيها إلى جانب ذلك من يشق الأدب ويمارس الشعر . وقد حدبت هذه البيوت على الشعر والأدب تمده بالرعاية وتبذل له من التشجيع ما يوسعها ذلك . ومن هذه البيوت : الشاوي والنقيب وكبة في بغداد ، والقزويني في الحلة ، وكاشف الغطاء والجواهري وبحر العلوم في النجف ، والعمري في الموصل . وتحت رعاية هذه البيوت استظل الشعر بجناح وريف الظل ونبغ كثير من الشعراء الأفذاذ الذين لا يقلون في التعبير والمعاني والأخيلة عن شعراء العصر العباسي الأخير . ومن هؤلاء : الحليان السيد حيدر والسيد جعفر ، والموصليان عبد الغفار الأخرس وعبد الباقي العمري ، والنجفيون السيد محمد سعيد الحبوبي والسيد ابراهيم الطباطبائي والشيخ عباس والشيخ جعفر الشرقي والشيخ جواد الشبيبي وغيرهم . وقد ترك معظم هؤلاء الشعراء دواوين مطبوعة وآثاراً مخطوطة يتدارسها أدباء العراق ويعنون بها ، لأنها الينبوع الذي تدفق من بين الرمال والصخور بعد فترة طويلة فسقى وأنبت وأمد نهضتنا الحديثة بذخيرة قوية وافرة .

ومن المنتمين بهؤلاء الشعراء الشاعر المعروف الدكتور محمد مهدي البصير استاذ الأدب العربي بدار المعلمين ببغداد فقد أصدر عنهم كتابا سماه : (نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر) تحدث فيه عن ثمانية وعشرين شاعراً بين شهير أضاف إلى حياته صفحة جديدة ، وبين مغمور كشف عن حياته وشعره . وهذا الكتاب هو مجموعة أحاديث أذاعها أديبنا الكبير من دار الإذاعة العراقية ثم شاء له حرصه الأدبي والتأريخي أن يجمعها في كتاب منشور .

هؤلاء الشعراء — كما يقول الدكتور في المقدمة — : «ليسوا كل من أنجب العراق من قالة القريض في القرن المنصرم ولا أكثرهم ولا كل من أعرف منهم ، ولكنهم صفوة من أعرف وخير من وصلني علمه منهم» أما دراسته لهؤلاء فليست من الدراسات التي تعتمد على الترجمة والرواية فحسب ، بل هي مزيج من هذا ومن غيره . ولعل اللون الذي يطغى على هذه الدراسة هو اللون التحليلي الذي يعتمد فيه على أثر الشاعر ويستقي من شعره ، ولذلك فإن الدكتور البصير أراه استخلصها من شعر هؤلاء قد لا يقره عليها عشاق التراجم ، كما أنه آراء قد لا يوافقه عليها نقاد الأدب ، ونراه في بعض الشعراء يبدو واضح الرأي والفكرة ، وفي بعضهم يظهر مترددا متهيبا من الإفصاح والجهد ، والسبب في ذلك يعود إلى أن الذين تحدث عنهم لم يكونوا جميعا ممن انقطعت صلتهم بالأحياء . بل أن معظمهم ترك وراءه أسرة وأحفادا يحاسبون الأديب والناقد الحر ، وأن معظمهم قد جمع بين الشعر والعلم ، وبينهما وبين التقشف والزهد فكان من البديهي أن يقع الدكتور في مأزق من جلاء الدراسة ووضوح الرأي فلم تسلم دراسته من بعض الغموض ، ولم يسلم رأيه من الترجح والتردد في بعض المواطن ، وسنشير إلى ذلك وغيره .

يتحدث — أول ما يتحدث — عن السيد محمد سعيد الحبوبي

النجفي الشاعر الشهير وصاحب الموشحات الكثير فيقارن بينه وبين الشريف الرضي وتسلم له مقارنته في كثير من المواطن ، في الشعر والعلم ، وفي الحياة والجهاد، وفي مواطن الترفع عن التكسب بالشعر ، ويفضل المقارنة بينهما في النسب، فكلا الشاعرين علويان يتصل نسبهما بالأمام علي ؛ وقد ترتب على هذا الإغفال مادمنا في صدد المقارنة اغفال ناحية أخرى وهي نصب الشريف الرضي لطويته ودفاعه عنها واعتزازه بها وتفجعه لمآسي أجداده أما الحبوبي فانه قليل المحاولة في ذلك ، فما هو السبب ولماذا ؟ هذا ما كنا ننتظره من الدكتور .

ويتردد الدكتور في رأيه بين الجهر والتكتم عند ما يتحدث عن غزل الحبوبي ، فهو لا يستطيع أن يحكم بأن الحبوبي قد اكتوى بنار الحب وأنه استمتع من شبابه بما يستمتع به كل شاب مترف لأن سمته الحبوبي الفقيه تأبى ذلك : . ثم يقول : « أننا نظلم الحبوبي ظلما فاحشا إذا افترضنا أن قلبه لم يكن من القلوب التي يدخلها الحب » ! فالدكتور البصير لا يريد أن يظلم الحبوبي فيقول عنه إنه أحب ولا يريد أن يظلمه فيقول : إنه لم يحب لأنه في الأولى يتنافى مع علمه وفقهه وفي الثانية يتنافى مع غزله الرقيق ؟! هذا هو موطن الغرابة في رأي الدكتور ، ولقد كان بإمكانه أن يعلن عن رأيه بوضوح ولا يتحفظ مادام يتنقل من ديوان الحبوبي بين شروح شتى التصوير والصوره ولا أحسب ذلك عسيراً على الدكتور وهو يعتمد في دراسته على الشعر أكثر من غيره .

ثم ما المانع من أن يكون الحبوبي قد عشق وأحب ولكن في سياج من العفة والأخلاق ؟ وهل كانت قلوب الفقهاء إلا كقلوب سائر البشر تحس بالجمال وتنفعل به، ولكنها كقلوب بعض البشر أيضاً لا تراكب هذا الجمال ولا تنطلق مع الحب إلى ماوراء العفة ؟ وليس الحبوبي إلا واحداً من هؤلاء يحس بالجمال ويحترمه وقديهيم به ولكن في دائرة محدودة هي النزاهة والعفة .

ثم ألبس الشيخ عباس النجفي — وقد تحدث عنه الدكتور فيمن تحدث عنهم — كان فقيها وكان مجبا تعرض في حبه لكثير من المتاعب وتحدثت عنه القصص الغرامية كما تتحدث عن أي شاعر عاشق صدق في شعره كما صدق في حبه ؟ فلماذا كان الشيخ عباس شاعراً مجبا صادق الحب ؟ ولماذا كان الحبوبي يظلم حين يتهم بالحب ويظلم حين يجرد منه ؟

اعتقد أن هذا التشكيك وهذا التحفظ ما كان لهما شأن عند الدكتور لو أنه عني بدراسة البيئة العراقية عناية دقيقة وربط بين هذه البيئة وبين شعر الحبوبي . ولو أنه أعطى البيئة نصيبا من الدراسة لجرد الحبوبي من تهمات الحب في مختلف أدواره، ولننظر إلى شعر الحبوبي :

قلن لي : ملك يابادي الشجن ذلك الصب العراق الوطن

مولع القلب بتسآل الدمن

لست تنفك تحيي الأربعا ولكم مجت ضحى في سفح شاح ؟

قلت : هل تنكرن صبا مولعا باذوات الأعين المرضى الصحاح

هذا نموذج ذكره الدكتور من غزل الحبوبي واستشف من ذلك أن الشاعر كان عاشقا ولكنه تحفظ بهذا الرأي كما يقول . ولو أنه أنكر على الحبوبي « تسآل الدمن » و « الأربع » و« سفح شاح » والجناس بين « ضحى وشاح » و« الأعين المرضى الصحاح أقول : لو أن الدكتور فعل ذلك لأنكر على الحبوبي هذا الحب وهذه المحاورة . ولنستمع الى الدور الآتي من الموشح :

ثم قدنا شـــدنها بالقدم وتلطفن بطيب الكلم

قلن لي : الوعد في ذي سلم

فانتظر حارسها أن يهجعا ورعاة الحي أن تأوي الرياح

وهزيع الليل أن ينهزعا ونسيج الروض أنفاس الرياح

فأين الحبوبي من ذي ســـلم ورعاة الحي والرياح وهو يعيش في مدينة النجف ؟ كل ذلك تقليد للصور الشعرية التي نجدها في محاورات ابن أبي ربيعة، ولكنه تقليد واضح الشخصية متين الأداء . أما الانفعالات التي يثيرها الحب في نفس الشاعر المحب وتنعكس في تعبيره فإننا لا نكاد نلمحها في ثنايا هذه الأبيات على أن السيد الحبوبي — رحمه الله — قد عدم كل رأي يقال فيه عن الحب في موشحة أخرى وصرح بأن هذا الغزل كله كان غزلا ماديا لا ينعكس فيه أية صورة من صور الحب الصحيح :

لا تخل وبك ومن يسمع يخل— أنني بالراح مشغوف الفؤاد

أو بمهضوم الحشا ساهي المقل أخجلت قامته السمر الصعاد

أو بريات خدور وكال يتفنن بقرب وبعاد
إن لى من شرق بردا ضفا هو من دون الهوى صاحبى
غير أنى رمت نهج الظارفا عفة النفس ورفق الألسن

ولا داعى لأن يقول الدكتور إن هذه الأبيات قد زادت (المسألة تعقيداً) بعد الذى أشرنا إليه .

حقا أننا نجد الحب فى أعنف صوره عند الشيخ عباس النجفى لأنه كان شاعراً صادق التعبير ، وفى حدود ذلك الحب لم يتجاوزه إلى ذى سلم وسفح ضاح، بل وقف عنده يؤديه أحسن أداء ويصوره أحسن تصوير وهذه قصيدته الشهيرة خير دليل على حبه الصادق العنيف :

عدينى واسطلى وعدى عديني ودينى بالصبابة فهى دينى
ومنى قبل بينك بالأماقى فإن منيتى فى أن تبينى
سلى شهب الكواكب من سهادى وعن عدد الكواكب فاسأليني
أما وهوى ملكت به فؤادى وليس وراء ذلك من يمين
لأنت أعز من نفسى عليها ولست أرى لنفسى من قرين
أما لنواكم أمد فيقضى إذا لم تقض عندكم ديونى ؟
هبونى أن لى ذنبا - ومال سوى كلفى بكم ذنب - هبونى
ألست بكم أكايد كل هول وأعمل فى هواكم كل هون
إذا ما الليل جن بكيت شجوا وطارحت الحمائم فى الغصون
ولو أبقت لى الزفرات صوتا لأسكت السواجع بالحنين
بنفسى من وفيت لها وخانت وأين أخو الوفاء من الخئون ؟

وهى قصيدة أكثر مما ذكرناه منها وقد أشار إليها الدكتور بقوله : لا أغالى إذا قلت إنى لا أعرف لجميل بن معمر شيخ المحبين قصيدة أخلص منها بالعواطف الصادقة وأغنى بالأحاسيس والمشاعر الرقيقة إذا فالدكتور قد استجاب لهذه القصيدة وانفعل بعواطف الشاعر ورافقه لحظة من الزمن أدرك خلالها أنه محب صادق الحب . فهل استجاب لنزوع المحبوبى حتى استجاب لعواطفه ولكنه تحفظ برأيه ؟ نقطة الخلاف بيننا وبين الدكتور هى البيئة وحدها فالدكتور لم يتعرض لها حتى يصل منها إلى نتيجة ، لذلك وقع فيما وقع فيه من الاضطراب فى الرأى ؛ إذ الواقع أن غزل المحبوبى لم يكن ليصوريته أدق التصوير . والواقع أن المحبوبى كان موفقا إلى حد بعيد فى الأداء اللفظى وفى التعابير الرقيقة وإن كانت من غير بيئته ، ولكنه لم يكن معبرا عن عواطف وانفعالات تثير القارىء فيستشف منها ظلالا تختفى وراء هذا التعبير ، لأن الشاعر لم يكن صباقى يوم من الأيام ، لا لأنه كان عالما فقيها ، وإنما لأنه لم يحب وكفى ، وإلا لصور حبه تصويراً لا يخرج به عن حدود البيئة ، لتحدث عن إحساسه الداخلى قبل أن يكثر من الغزل المادى .

على أن الدكتور حين يستعرض الغزل عند السيد حيدر الحلى يقول عنه : ليس هناك أدنى شك فى أن السيد حيدر لم يقع فى شرك الحب ولم يخضع لسلطان الغرام فى يوم من الأيام إذا كان ما نعرفه من أخلاقه وأحواله صحيحا . وهنا نضع أكثر من علامة استفهام لنسأل الدكتور عن السر فى تفاوت الشاعرين وكون المحبوبى يظلم حين يجرد من الحب، وإن الحلى لم يقع فى شرك الحب ؟

ثم ما هو المانع من أن يجتمع الحب النزيه مع الأخلاق الكريمة إذا كانت الأخلاق مقياس الحب ؟

وهذه أبيات للسيد حيدر نرويها كما رواها الدكتور :

سارقتها النظر الريب بغفلة لم تقض من لماتها آرابها
ولقد دعوت ومادعوت بجيبة ودعت بقلبى للهوى فأجابها
أعقيلة الحيين شقت قولى كيداهونك فكابدت أوصابها
مادمية المحراب أنت بل التى تسبين نساك الورى محرابها

أن هذه الأبيات خالية من الأحاسيس والعواطف فى نظر الدكتور مع أن الشاعر لم يزخرف فيها ولم يتصنع . أما النزل عند المحبوبى فان من الظلم أن يجرده من العواطف !!

البقية فى العدد القادم

ابراهيم الوائلى

أحمد حسن الزيات

يقدم

دفاع عن البلاغة

كتاب يعرض قضية البلاغة العربية أجل عرض ويدافع عنها أبلغ دفاع فيذكر أسباب التأخر للبلاغة ، والعلاقة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة ... الخ .

من فصوله المبتكرة القول ، والأسلوب ، والمذهب الكتابى للعامر وزعمائه وأتباعه ، ودعاة الحاية ، ودعاة الرمزية ، ومولف البلاغة من هؤلاء وأولئك ... الخ

يقع فى ١٩٤ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشاً عدا أجرة البريد